العرب والإسلام

عقائد ومفاهيم جديدة

لقد جاء الإسلام بمعتقدات ومفاهيم جديدة تخالف تلك المفاهيم التي سادت العصر الجاهلي ، فقضى على عادات الجاهلية مثل :عبادة الأصنام والأوثان ، ووأد البنات ، والعصبية القبلية ، والحمية الجاهلية ، ونصرة الأخ الظالم ، والمفاخرة بالأنساب والأحساب ، والخروج على الجماعة ، والسلب والنهب ، والإغارة على الآمنين ، واحتقار العمل ، ودعا الإسلام العرب إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وبجميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى محمد ﷺ وأمرهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وألف بين قلوبهم .

كيف عرض جعفر بن أبي طالب الإسلام على النجاشي ؟

وكم كان جعفر بن أبي طالب بليغاً وهو يشرح للنجاشي ملك الحبشة قصة إسلام السابقين إلى الإسلام من المهاجرين فقال: " أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار

والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قال : فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك " (رواه أحمد)

والمتدبر لاختيار الله تعالى العرب لنشر رسالته يجد أنهم أنسب الخلق جميعاً لحمل الرسالة الخاتمة بعد أن استل الإسلام من السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار سخائم قلوبهم ، وهذَّب سوء طبعهم ، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وجعلهم راشدين ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾

[الحجرات : ٧]

فالمؤمنون العرب – بعد أن هذَّب الإسلام طباعهم – صاروا أقدر الأمم على حمل رسالة آخر الأنبياء والمرسلين تبليغها لأن نشر الدعوة كان يحتاج إلى جانب الإيمان الشديد ، شجاعة ، وكرماً ، وبلاغة ،

وإغاثة الملهوف . شجاعة للدفاع عن هذه العقيدة ضد أعدائها الذين يقفون في سبيل انتشارها ، وكرماً في تجهيز هذه الحروب المقدسة ، وبلاغة في بيان هدي ذلك الدين القيم ، وإغاثة المتلهفين إلى الدين الحق المتضورين تحت نير استبداد الحكام ، وفساد الأديان ، وقد اجتمعت هذه الخصال جميعها في العرب بعدما وجهتها تعاليم الدين الحنيف وجهتها الصحيحة .

لماذا لم يؤمن أئمة الكفر في قريش ؟

إن أئمة الكفر من سادة العرب لم يؤمنوا برسالة الإسلام للأسباب رغم يقينهم بصدق النبي ، صدق دعوته ، وإعجاز القرآن الذي أنزل عليه .

﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣]

وعن أبى يزيد المدني أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ ؟ فقال : والله إني لأعلم أنه لنبي ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعاً ؟

المعنى : إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لي فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم.

والمعنى : إن هؤلاء الكفار يا محمد لا ينسبونك إلى الكذب ، فهم قد لقبوك بالصادق الأمين ، ولكنهم يجحدون الآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم مع اعتقادهم صدقها .

والجحود هو الإنكار مع العلم ، أي نفى ما في القلب ثبوته ، أو إثبات ما في القلب نفيه ، وفى التعبير بالجحود بعد نفى التكذيب إشارة إلى أن آيات الله واضحة بحيث يصدقها كل عاقل وأنه لا يصح إنكارها إلا عن طريق الجحود .

وقال سبحانه { ولكن الظالمين } ولم يقل (ولكنهم) ، لبيان سبب جحودهم وهو الظلم الذي استقر في نفوسهم ، وفيه فوق ذلك تسجيل للظلم عليهم حتى يكونوا أهلا لما يصيبهم من عقاب . (١)

لقد عرف الذين كفروا برسول الله من سادة قريش صدق النبي وحقيقة رسالته – ما في ذلك ريب – ولكن بسبب ظلمهم واتباعهم أهواءهم والحسد الذي ملأ قلوبهم والتمسك بالسلطة الزمنية أصرُّوا على الضلال.

كيف عالج الإسلام آفات العرب ؟

إن هناك آفات كانت تشيع في القبائل العربية حضرها وباديتها لعل أهمها معاقرة الخمر واستباحة النساء ولعب الميسر ، ونحن نجد الخمر تجري على كل لسان ، وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم ، وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها وقد شدد في عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهي عن شرب الخمر ولعب الميسر .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠]

يخاطب الله تعالى المؤمنين الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، ويحذرهم من تعاطي { الخمر } أي : الشراب الذي يخامر العقل ويخالطه ويمنعه من التفكير السليم { والميسر } أي القمار الذي عن طريقه يكون تمليك المال بالحظ المبني على المصادفة والمخاطرة {والأنصاب} أي : الحجارة التي تذبح عليها الحيوانات تقرباً للأصنام .

---

(١) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ١٤٥٢ .

{ والأزلام } أي : السهام التي عن طريقها يطلب الشخص معرفة ما قسم له من خير أو شر . هذه الأنواع الأربعة { رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان } أي : مستقذرة تعافها النفوس الكريمة ، وتأباها العقول السليمة ، لأنها من تزيين الشيطان الذي هو عدو للإنسان ، ولا يريد له إلا ما كان شيئا قبيحاً . (١)

وكما هاجم الإسلام هذه الآفات العربية هاجم قانونهم الدموي المقدس: قانون الأخذ بالثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد .

يقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء : ٣٣]

وفي الآية تحريم لقتل النفس إلا بالحق و إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق العدل عند المطالبة بحقه .

والمراد بوليه : من يلى أمر المقتول ، كأبيه وابنه وأخيه وغيرهم من أقاربه الذين لهم الحق في المطالبة بدمه . فإن لم يكن للمقتول ولى ، فالحاكم وليه .

والمراد بالسلطان : القوة التي منحتها شريعة الله تعالى لولى المقتول على القاتل ، حيث جعلت من حق هذا الولي المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو أخذ الدية منه ، أو العفو عنه ، ولا يستطيع أحد أن ينازعه في هذا الحق ، أو أن يجبره على التنازل عنه . (٢)

---

(١) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج ١ ص ٢٦٢٤

(٢) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج ١ ص ١٣٦٠

أما استباحة النساء فقد غلَّظ الله عقوبتها في الدنيا ولم يمهل الزاني لعقاب الآخرة حتى لا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، فجعل الله تعالى عقوبة الزاني المحصن الرجم حتى الموت ، وغير المحصن الجلد مائة جلدة على رءوس الأشهاد .

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢]

الزانية والزاني اللذان لم يسبق لهما الزواج، عقوبةُ كل منهما مائة جلدة بالسوط، وثبت في السنة مع هذا الجلد التغريب لمدة عام. ولا تحملكم الرأفة بهما على ترك العقوبة أو تخفيفها، إن كنتم مصدقين بالله واليوم الآخر عاملين بأحكام الإسلام، وليحضر العقوبةَ عدد من المؤمنين؛ تشنيعًا وزجرًا وعظة واعتبارًا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عز وَجَلَّ أَلاَ وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ إِذَا أَحْصَنَ الرَّجُلُ وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَمْلُ أَوِ الاِعْتِرَافُ فَقَدْ قَرَأْنَاهَا : الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ "

[متفق عليه]

ولم يقبل النبي في إقامة الحد على الزاني شفاعة حتى من أحب الناس إليه .

فلقد أنكر الرسول ﷺ وسلم على أسامة بن زيد ، رغم حبه الشديد له ، أن يشفع في فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية ، التي سرقت

قطيفة أو حليّاً ، وقال له : " « أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حدُودِ اللَّهِ؟ ». ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ :« أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ». [متفق عليه]

كما حرَّم الله تعالى رمي المحصنات دون أن يأتوا بأربعة شهداء وجعل عقوبة من يفعل ذلك الجلد ثمانين جلدة صيانة للأعراض

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٤]

والذين يتهمون بالفاحشة أنفسًا عفيفة من النساء والرجال مِن دون أن يشهد معهم أربعة شهود عدول، فاجلدوهم بالسوط ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، وأولئك هم الخارجون عن طاعة الله.

دخول العرب في دين الله أفواجا

لما أيد الله دعوته وأيده بمن آمن معه من أهل مكة ونصره بالأنصار في المدينة حتى فتح مكة وعفا عن أهلها دخل الناس في دين الله أفواجاً .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [الفتح : ١- ٣]

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولا واحدًا، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي. فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام،

ولله الحمد والمنة. وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: " وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلامِهِمْ الْفَتْحَ فَيَقُولُونَ اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلامِهِمْ " (١)

ولماذا خاض السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هذا الصراع المرير مع أهل الكفر ما داموا سيدخلون في دين الله أفواجاً في نهاية المطاف ؟

الحقيقة إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة ، ويرفعها على ذواتها ، ويطهرها في بوتقة الألم ، فيصفو عنصرها ويضيء ، ويهب العقيدة عمقاً وقوة وحيوية ، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها . وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجاً كما وقع ، وكما يقع في كل قضية حق ، يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق ، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم ، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين .

على أنه – حتى إذا لم يقع هذا – يقع ما هو أعظم منه في حقيقته . يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها ، وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة ، والحرص على الحياة نفسها في النهاية . وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها ، وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء . كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون ، والمؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥١٣

وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف ، هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى ، وللجماعة المسلمة في كل جيل .

هذا هو الطريق : إيمان وجهاد . . ومحنة وابتلاء . وصبر وثبات . . وتوجه إلى الله وحده . ثم يجيء النصر . ثم يجيء النعيم . . (١)

رأي ابن خلدون في العرب

أما ابن خلدون فله رأي شديد العمق – رغم قسوته – في طبيعة العرب ملخصه :

١- توحش طبع العربي وغلظته بسبب شظف العيش وقسوة البيئة التي عاش فيها وبعده عن المدنية .

٢- الرضا بالقليل والقعود عن منافسة الأمم الأخرى .

٣- الركون إلى الكسل وعدم الميل إلى ركوب المخاطر والمحاربة إلا دفاعاً عن النفس أو القبيلة .

٤- عدم التسلط إلا على الضعفاء فإذا ما تمكنوا منهم نهبوا ما في أيديهم .

٥- لا يزالون بالشعوب ضعيفة الحماية ذات العمران حتى يحولوها إلى خراب كما يفعل البدوي بالأرض ذات الكلأ والماء لا يتركها إلا إذا صارت أرضا قفراً جدباء.

٦- منافاتهم للحضارة والعمران فهم لا يحسنون الصناعة ولا الزراعة إنما هم يعيشون على الموارد الطبيعية أو ما يصنعه الغير . إذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع .

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ١ ص ١٩٨.

٧- لا يخضعون لسياسة الحكم إلا مكرهين .
٨- متنافسون في الرئاسة وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل وعلى كره .
٩- لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة .
١٠- العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك .
١١- العرب محبون للفخر ، وأن يحمدوا بما ليفعلوا .(١)

ما يُصلح العرب

عرفنا لماذا اختار الله تعالى العرب ليحملوا أمانة هذا الدين الخاتم ولماذا اصطفى من العرب قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفى محمداً من بني هاشم ، كما عرفنا أن العرب لم يخضعون إلا لله ولم يطيعوا إلا رسوله ولم يتوحدوا إلا على دينه ، فدانت لهم الممالك وخضعت لسلطانهم الإمبراطوريات ، وفي ذلك يقول ابن خلدون بعد أن حدد سمات العربي " إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات

(١) راجع مقدمة بن خلدون فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، وفصل في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب .

الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات فإن كان مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم.(١)

كيف عالج النبي مشكلة البدو ؟

إذا كان الإسلام قد ظهر في أكثر البيئات العربية تحضراً ، في مكة " أم القرى " فلقد ميَّز ، حتى في الإطار الديني بين " البدو " وبين " الحضر " بين الأعراب وبين المتحضرين ، حتى لقد كاد أن يقول قرآنه الكريم : عن السمة الأساسية والغالبة هي ملاءمة " الإيمان " بالإسلام للحضر والحضارة والمتحضرين .. وأنه إذا كان ﴿ مِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة : ٩٩]

فإن ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٩٧]

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة : ٩٨]

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ [التوبة : ١٠١]

و ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح : ١١]

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج١ ص ١٥١ دار القلم بيروت – لبنان

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات : ١٤]

وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة قد مثلت نجاة نواة الأمة المؤمنة بدينها من الاضطهاد والحصار ، فلقد استمرت الدولة العربية الإسلامية بالمدينة في دعوة الأعراب والبدو إلى الهجرة للمدن والتوطن فيها وفيما حولها ، أي الهجرة إلى التحضر ، وتجاوز النقيض ، الذي هو البداوة حتى لقد اعتبرت السنة النبوية الشريفة رجوع المهاجرة من المدينة إلى البداوة ردَّة فاستخدمت مصطلح " الردة " في وصف العودة عن الحضارة إلى البداوة حتى لقد سأل الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ – ٩٥ هـ) سلمة بن الأكوع مستنكراً : " يَا ابْنَ الأَكْوَعِ ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ ؟! .. " (أي ارتددت أعرابيّاً بدويّاً ؟!) فقال له سلمة : " لاَ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَذِنَ لي في الْبَدْوِ." [متفق عليه]

وفي حديث عبد الله بن مسعود : " .. وَالْمُرْتَدُّ أَعْرَابِيًا بَعْدَ الْهِجْرَةِ ، مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ " [حديث صحيح رواه أحمد والنسائي وغيرهما] (١)

وبهذا حلَّ الإسلام مشكلة البدو بدمجهم في المدن ليتعلموا الحضارة والإسلام وليرق طبعهم وتحسن أخلاقهم ويستبدل شريعة الإسلام العامة بقوانينهم الخاصة ويكون المسلمون أمة واحدة وجسد واحد وبنيان واحد .

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

[آل عمران : ١٠٣]

---

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص ١٤ ، ١٥ .

فالله تعالى يدعو المسلمين جميعاً حضراً وبدواً عرباً وعجماً أن يتمسكوا جميعًا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه المبينة له ولا يفعلوا ما يؤدي إلى فرقتكم. ويعودوا قبائل متفرقة يغير بعضهم على بعض وأمماً متصارعة كما كانوا قبل الإسلام فقد جمع الله قلوبهم على محبته ومحبة رسوله، وألقى في قلوبكم محبة بعضكم لبعض، فأصبحوا -بفضله- إخوانا متحابين .

هذا هو الحل الناجع للمسلمين أن ينصهروا في بوتقة الإسلام حتى يصير المسلمون جميعاً رجلاً واحداً كما قال النبي " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ " [متفق عليه]

وإذا كان هناك اختلاف طباع فيجب أن يتحول إلى اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد بحيث تستفيد الأمة الإسلامية من سائر المواهب والخصائص والسمات لرفعتها وتقدمها فشريعة الإسلام تسعهم جميعاً وتجمع بينهم على الحب والتراحم والتعاطف " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى " [رواه مسلم]

وهكذا اختار الله تعالى العرب الخلَّص عرباً وأعراباً حضراً وبدواً للقيام بالمرحلة الأولى من رسالة خاتم المرسلين مرحلة الدعوة والجهاد بالنفس والمال مرحلة الصبر والمثابرة بعدما طهرهم من آفات الجاهلية وتمسكوا بهدى الإسلام ، ثم تأتي المرحلة الثانية مرحلة الحضارة الإسلامية تلك المرحلة التي حمل عبأها الأكبر شعوب البلاد المفتوحة الأمم المستعربة: العراق والشام وإيران ومصر والأندلس ... التي تعلمت اللغة العربية وليست من أصل عربي .

مصر والفتح العربي الإسلامي

لقد ظلت مصر ترزح تحت الاحتلال الروماني والبيزنطي أكثر من ستة قرون (٣٠ ق.م – ٦٤١م) حتى بدأت حركة الفتوح الإسلامية التي حررت الشام من أيدي البيزنطيين زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي عرف بسماحته وعدله حتى لقب بالفاروق .

وفي عام خمسة عشر للهجرة أرسلَ قادة الجيوش الإسلامية إلى حاكم القدس ليسلمهم مفاتيح القدس بعد أن أراد السلم ، فأبى حاكمها البطريرك صفرونيوس أن يُسلم المفاتيح لأيّ من القادة عمرو بن العاص ، أو شرحبيل بن حسنة ، أو أبا عُبيدة عامر بن الجراح ،وقال لهم : لقد قرأنا في كُتبنا أوصافاً لمن يتسلم مفاتيح مدينة القدس ، ولا نرى هذه الأوصاف في أي واحد من قادتكم ، فأرسلوا إلى الخليفة عمر بن الخطاب وطلبوا منه الحضور ليتسلم المفاتيح بنفسه .

فركب عمر بن الخطاب ومعه غلامه ، وكانا يتناوبان على الدابة بالركوب ويتركانها ترتاح مرة ، وعندما قاربا على مشارف بلاد الشام وقريباً من القدس ، قابلتهم مخاضة من الطين بسيل وادي عمواس ، فقال أبو عُبيدة عامر بن الجراح : أتخوض الطينَ بقدميك يا أمير المؤمنين وتلبس هذه المُرقعة وهؤلاء القوم قياصرة وملوك ويُحبون المظاهر ،وأنت أمير المؤمنين فهلا غيرت ثيابك وغسلت قدميك؟؟ وهذا مقام عزة وتشريف للمسلمين بتسلم مفاتيح القدس.

فماذا قال عمر بن الخطاب لأبي عبيدة ابن الجراح بعد أن ختم أبو عبيدة كلامه بقوله : ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك ! فقال عمر :

أوه لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ! إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله " [صححه الألباني]

بهذه الأخلاق فتح المسلمون العرب القلوب قبل الحدود ، وغزو العقول قبل الممالك ، ولا عجب أن يتطلع أقباط مصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب لكي يبعث بمن يخلصهم من مخالب الروم (البيزنطيين) واضطهادهم وفساد موظفيهم وجباة ضرائبهم ، وبخاصة بعد أن سمعوا أن المسلمين لا يتدخلون في عقائد الآخرين ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ٦]

لقد مال سكان مصر من الأقباط مع المسلمين على البيزنطيين نتيجة للإدارة السيئة لهؤلاء ، بالإضافة إلى السياسة الدينية التي سارت عليها الإمبراطورية البيزنطية في اضطهاد مسيحي مصر الأقباط ، حتى انحاز عدد كبير من السكان الأصليين إلى جانب المسلمين ، وهاجموا أحياناً الجنود البيزنطيين أينما صادفوهم وسلموهم للمسلمين بعد تجريدهم من سلاحهم . (١)

وفرح الأقباط بخروج الروم (البيزنطيين) من مصر ، وعبَّر البطريك بنيامين لعمرو بن العاص عن فرح المسيحيين بقوله : " كنت في بلدي وهو الإسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنَّا اضطهاد الكفرة (يقصد الروم) وبأسهم " وقال أيضاً

(١) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٥ .

عن نفسه وعن بقية القبط : " لقد فرحوا كما يفرح السِّخال (١) إذا ما حُلَّت لهم قيودهم وأطلقوا ليرشفوا من ألبان أمهاتهم " (٢)

الأمم المستعجمة

الأمم المُسْتَعْجَمَة هم غير العرب الذين تعرَّب لسانهم ، وهم يمثلون معظم سكان العراق والشام ، وكل سكان : إيران ، ووادي النيل ، وبلاد المغرب العربي ، والأندلس من غير العرب وهم وإن كانوا يتكلَّمون اللغة العربية إلا أنهم ليسوا من أصول عربية ولا يحملون الصفات العربية بل لكلِّ بلد طبيعة خاصة تميزها ، فأهل العرق غير أهل الشام غير المصريين غير بلاد المغرب العربي .

فإذا كان العرب المُسْتَعْرِبة شعوباً بدائية لا أثر للحضارة فيهم ووصفهم القرآن الكريم بالأميين ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة : ٢)

كما سمَّى القرآن الكريم حياتهم قبل الإسلام بالجاهلية ، وجعلها موضع الذم بل جعلها مقابلة للإسلام ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠]

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران : ١٥٤]

---

(١)(السخلة) الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد (ج) سخل وسخال وسخلان . المعجم الوسيط .

(٢) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .

وأبطل النبي ما كان من عادات قبيحة طفحت بها الجاهلية فقال : " أَلاَ إِنّ كُـلّ شَـيْءٍ مِـنْ أَمْـرِ الْجَاهِلِيّـةِ تَحْـتَ قَـدَمَيّ مَوْضُـوعٌ، وَدِمَـاءُ الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعَةٌ " [رواه مسلم وأبو داود]

" أَلاَ إِنّ كُلّ مَـأْثَرَةٍ كَانَـتْ فـي الْجَاهِلِيّـةِ تُذْكَرُ وَتُدْعَى مِـنْ دَمٍ أَوْ مَـالٍ تَحْتَ قَدَمَيّ إِلاّ مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الْحَاجّ وَسِدَانةِ الْبَيْتِ " [أبو داود]

كنت أقول إذا كان العرب المُسْتَعْرِبة هم من الشعوب البدائية الجاهلية فإن الشعوب المُسْتَعْجَمَة أصحاب حضارات وعلم وتقدم بل هم مهد الحضارات الإنسانية ، فالحضارة المصرية القديمة ، والحضارية الفينيقية ، والبابلية هي أقدم الحضارات .

لقد قدَّمت الأمة الإسلامية أعظم حضارة عرفها التاريخ جمعت بين الثابت والمتغير جمعت بين شريعة الله ، والإبداع الإنساني ، بين الإيمان والعمل الصالح ، بين العبادة وتعمير الكون .

إن الحضارة بمعناها الحقيقي – وليست المَدَنيَّة أو العمران أو الثقافية – لابد أن يتوفر فيها جانبان :

١– دين سماوي (عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأخلاق) .

٢– إبداع إنساني : علمي (علوم : إنسانية ، وطبيعية ، ورياضية ، وفلكية ...) وتِقَنِي (اختراعات متطورة) ومادي (تشييد وبناء ...) وفني (أدب ، ورسم ، ونحت ، وموسيقى ، وتصوير) وبدني (رياضة: فروسية ، رمي ، سباحة ، عدو، مصارعة ..) .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحيّاً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) وإنسانيّاً (مكارم

في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسدياً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابد أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، محافظة على توازن الإنسان والكون ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة إلا في الحضارة المصرية القديمة والحضارة الإسلامية الوسيطة ." (١)

إن الذين قاموا بالإسلام وشيدوا حضارته هم المؤمنون من عرب المُسْتَعْرِبة والمُسْتَعْجَمَة الذين تخلَّقوا بأخلاق النبي واتبعوا شرعه ، وصبغهم الإسلام صبغة أخرى غير التي كانوا عليها ، أما من ظلُّوا على ما هم فيه من عادات الجاهلية فليس لهم من الإسلام شيء وإن سموا مسلمين وجاهدوا معهم ، وفتحوا بلاداً وقاتلوا المشركين.

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[التوبة : ١٠٠-١٠٢]

فما انتصر الإسلام ، ولا دخل الناس في دين الله أفواجاً إلا بفضل المؤمنين حقاً من العرب وغيرهم من سائر الأمصار ، وما بنى الحضارة الإسلامية إلا المؤمنون المخلصون الذين أطاعوا الله ورسوله وتطهروا من كل ما يخالفه هدي الإسلام من عادات وتقاليد وعصبية

(١)" ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف ص ٣٠٩ ، ٣١٠ مكتبة مدبولي.

وطبائع . ولقد أمر الله تعالى في غير موضع بضرورة التمسك بدين الله.

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١٠٣]

وبغير التمسك بدين الله الحق فلا وحدة ولا قوة ولا نصر إنما الفرقة والضعف والهزيمة ، وهذا ما حدث لأمة الإسلام عندما تخلَّت عن الإسلام ، واتبعت شهواتها ، وأحيت عصبيتها .

إن عز المسلم وفخره هو الإسلام فمن استمسك بالإسلام الحق ، وبتعاليم الدين الحنيف فقد استمسك بالعروة والوثقى لا انفصام لها .

أما أولئك الذين يتبعون عادات آبائهم ، ويغلِّبون طبعهم الجاهلي على صبغة الإسلام ، بل يصبغون الإسلام بطبعهم الجاهلي يكرِّسون حكم الفرد ، والتخلف ، والظلم .

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف : ٢٨ –٣٠]

***